من دمشق الى الكويت

قبيل سفري من دمشق ببضعة ايام قمت بتوديع صاحبي المعالي وزير الخارجية ووزير المعارف في الجمهورية السورية . وفي اصيل يوم الاثنين ٩ شوال عام ١٣٦١ و ١٩ تشرين الاول عام ١٩٤٢ قبلت يدي امي الحنون ساكباً عليها الدموع وقبلتني هي من وجنتي ساكبة عليها الدموع ايضاً ، وما أخلصها واطهرها من دموع ، دموع البنوة والامومة في موقف شعري دقيق كموقف الوداع ، وبعد ان ودعت اهلي واصدقائي الكثيرين الذين اتوا لتوديعي غادرت الدار مشيعاً بالدموع والحب معاً بعد ان القيت نظرة عجلى على غرفتي الصغيرة التي درجت فيها احلامي واتقدت تحت سقفها عواطفي واكتملت على طاولتها ثقافتي وبنيت ضمن جدرانها الزرقاء آمالي الواسعة البيضاء . ركبت السيارة وعيون امي واختي واهلي خلف النافذة تشيعني تكاد تخترق الزجاج وتود لو تتبعني فلا اسافر .

وفي المحطة التقيت باخواني اعضاء البعثة السورية وبعثة المعلمات السوريات وبالبعثة التدريسية المصرية وبمدير معارف الكويت وكنا على موعد ، ووجدت على رصيف المحطة عدداً كبيراً من اصدقائي وفي مقدمتهم جدي الجليل واخي . ركبت القطار بعد قبلات وتحيات وخفقات بالقلوب والمناديل مما لا مجال للتبسط فيه هنا لان موقف الوداع يستدر الدموع من المآقي . وأنا اشفق عليك ايها القاريء ان تدمع عيناك من اجلي . سرنا بالقطار الى حلب ومنها بالقطار الى بغداد عبر الاراضي التي يقال انها تركية وهي في الحقيقة سورية بحتة ، ومن بغداد بالقطار ايضاً الى البصرة ، ومنها ركبنا السيارات (البوكس) الى الزبير ومنها الى مكان اسمه (صفوان) وهو آخر مخفر عراقي على الحدود الجنوبية .

وبعد عدة اكيال اشار السائق الى حجر صغير حقير على الاسمنت من الارض الرملية يكاد يعثر به المرء ولا يشعر وقال انه الحد الفاصل بين المملكة العراقية

المستقلة وامارة الكويت المستقلة فضحكت ضحكة مرة وقلت : لا حول ولا قوة الا بالله ، لقد مزقوا الوطن الواحد وفرقوا الشمل المجموع .

وكنت في الصحراء ارى البحر واقسم واراهن انه بحر ، ويوافقني على ذلك رفاقي ولكن سائق السيارة يضحك ويقول انه سراب .

دخلنا حدود الكويت ،واخذت السيارات تندفع بنا في بحر من الرمل، وأرخى الليل سدوله ولكن طلع القمر بعد قليل اذ كانت الليلة السادسة عشرة من شوال ولم يلح لعيني نور او قبس من نور سوى ضوء القمر وبقيت السيارات تسير في الصحراء نحو خمس ساعات .

كانت نسمات الخريف الصحراوية تهب علي باردة منعشة وكان القمر يرسل اشعته الذهبية على الصحراء فيكسوها بثوب جميل فتان ، وكان المصريون يلحون على السائق بالاسراع ويخشون ان نضيع بينما كنا نحن نأكل من رطب البصرة الفاخر ونضحك . وفجأة لاح لعيني البحر يلمع تحت ضوء القمر ودق السائق بوق سيارته وانعطف ذات اليسار فرأيت على ضوء السيارة سوراً فيه بوابة كبيرة فقلت بفرح : وصلنا . ودخلت السيارة من البوابة الى شارع مفروش بالرمل بعرض ستين متراً تقريباً اسمه « ساحة نايف » وحيانا الحرس بسرعة واقتضاب . ثم مررنا بساحة « الصفاة » الفسيحة التي كانت تشع فيها الاضواء من دور الحكومة والمقاهي وكان الناس قاعدين يستمعون الى الرادي [١] ويدحنون (القدو) اي الاركيلة وما كادت تقف السيارات امام دار الامن العام حتى توافد الناس للسلام علينا ، وشاع الخبر في المدينة مثل البرق بان البعثة السورية قد وصلت والغريب انه لم يكن في استقبالنا احد لا من طرف الامير ولا من طرف الحكومة .

وصلنا الكويت بعد مسير سبعة ايام من دمشق قطعنا فيها نحو ثلاثة آلاف كيل واستأنفت السيارات سيرها الى دار الشملان حيث نزلنا عليه نحن السوريين ضيوفاً مكرمين ، وللحال غيرنا ساعاتنا فجعلناها عربية على عادة القوم هناك ، واخذ

---

[١] راد على وزن ناد والجمع رواد كنواد عربناها عن راديو .

الناس يتوافدون للسلام علينا افراداً وجماعات من كل الطبقات : التجار والشباب والمعلمون والوجهاء والطلاب وكان في مقدمتهم الاطباء السوريون . وقد استرعى انتباهي بين الشباب فتى وسيم لطيف أتى للسلام علينا هو جابر العبد الله نجل رئيس المعارف .

عند الامير في الكشك : وفي اليوم التالي ذهبنا جميعاً للقيام بواجب السلام على سمو الامير . سرنا في الطريق وكنت أسأل الشملان : هل استأذنت سموه وكيف تقابله بدون سابق موعد ؟ فكان يبتسم ويقول : ما يخالف اي لا مانع . وصلنا قصر (الكشك) وهو قصر من طابقين مبني من (الطابوق) اي الآجر العراقي بسيط الهندسة قليل الزخرفة مؤلف من قسمين منفصلين يصلها جسر صغير وهو واقع على السيف أي ساحل البحر وامامه ساحة رملية عارية من النبت يرتفع في وسطها صار عظيم يشبه صواري المراكب الشراعية يرفرف في اعلاه علم مستطيل احمر مكتوب عليه بالابيض لفظ « كويت » وفي الزاوية كتب (لا إله الا الله محمد رسول الله)، هو علم الامارة ، ونوافذ القصر كثيرة تطل على البحر من جهة وعلى « السكة » اي الطريق من جهة اخرى وبعضها مغطى بزجاج ملون وقد بناه الشيخ مبارك جد الامير الحالي ، ونقشت عليه لوحة فيها حكمة بالغة : « لو دامت لغيرك لما اتصلت اليك . »

دخلنا القصر بلا استئذان ومررنا الى البهو حيث يقعد سمو الامير ولم يسألنا أحد من الحجاب والجنود الذين لا يمنعون اتصال الناس بالامير ، وهذا تواضع يحمد عليه ملوك وامراء العرب . ورأينا (الفداوية) أي الحرس الاميري الخاص بألبستهم العربية المعروفة يحملون (التفك) أي البنادق ؛ والعبيد يحملون على ايديهم الصقور .

دخلنا بهواً طويلا بسيط الاثاث عاري الارض فنهض من في المكان فسلمنا وسرنا ورأيت في صدر البهو باباً مغلقاً وكنت اظن ان هذا البهو هو ممر يؤدي الى مكتب الامير وما وصلنا الى قرب الباب حتى عرتني الدهشة حينما نهض من في صدر

المكان يرحب بنا وبصافحنا هو سمو الامير نفسه . قمدنا قربه وكان هو قاعداً على (قاطع) الى قرب نافذة تطل على البحر وبجانبه الهاتف وبعد تبادل التحيات وأثناء الحديث وفجأة دوى البهو بالصياح وسمعت جلبة وضوضاء ، وعلت اصوات الجنود والفداوية والخدم والعبيد بصورة شديدة رنت لها ارجاء البهو فذعرت قليلا واتجهنا جميعنا نحن الضيوف بانظارنا الى الباب وحسبنا انه حدث ما لا يرضي او ان احداً يريد الاعتداء على القصر او الدخول بالقوة ، ولكن تبين لنا ان هذه الصيحات والاصوات لم تكن الا ترديداً لأمر سمو الامير (قهوة) فردد الجميع (قهوة) (قهاوة) (اي والله قهوة) ، وهي طريقة يخبر بها الحرس بعضهم بعضاً حتى يتصل الامر بمسامع « راعي المعاميل » أي صانع القهوة ، وتقهوينا .

استقبلنا سمو الامير باحترام ولطف وبشاشة ، وسألنا عن سورية ومصر وعن سفرتنا وهنأنا بالسلامة ثم استأذنا سموه وانصرفنا شاكرين .

وطفنا كذلك على بقية (الشيوخ) اي الامراء وسلمنا عليهم ايضاً وردوا التحيات لكبار القوم .

وقد زرت فيمن زرت جناب رئيس المعارف والمحاكم الشيخ عبد الله الجابر وأبلغته سلام معالي وزير المعارف في سورية ، وقدمت له من معاليه كتابا خاصاً هذا نصه :

« الى جناب مدير معارف امارة الكويت المحترم

أبعث اليكم بتحياتي الخالصة واماني الحارة بتقدم امارة الكويت واستمرار فلاحها وهي القطر العربي العزيز الذي ارجو له دوام الرفاه والسعادة ؛ وبعد فان حكومتكم الموقرة قد اتفقت مع فريق من ابنائنا المثقفين مؤلفة من السادة : فيصل العظمه ، وكامل البنقسلي ، وحيدر مصطفى حيدر ، وعبد العزيز ملص للتدريس في مدارسها الرسمية وهم من شبابنا الطيب الذي اوتي القسط الوافر من الاخلاق الرصينة والعلم الوافر والخلق الحسن الرصين فارجو ان يكونوا خلال اقامتهم في ديارهم الناهضة مشمولين بعطفكم ورعايتكم ومساعدتكم ، واني لأرجو ان يوفقوا

كل التوفيق في اداء المهام التي ستلقونها على عواتقهم وتفضلوا واقبلوا مع ذكرياتي الاخوية عواطف احترامي ودمتم » .

دمشق في ٥ شوال ١٣٦١ و ١٥ تشرين الاول ١٩٤٢

وزير المعارف : « خليل مردم بك »

فتقبل جنابه الكتاب بدون اهتمام ، وجدير بالذكر انني لم احصل على هذا الكتاب من وزير المعارف الا بعد اخذ ورد ، وكنت عارفاً ان هذا الكتاب لايقدم ولا يؤخر ولا يعلي مقامنا في الكويت ولكن اردت ان تتوثق الصلة بين وزير معارف سورية ورئيس معارف الكويت

بقينا في الكويت ثلاثة ايام نستقبل فيها المهنئين والمسلمين ثم استلم كل منا عمله وقد اقيمت على شرفنا عدة مآدب وولائم غير رسمية دلت على ذوق الكويتيين ، والغريب ان حكومة الكويت لم تقم بواجب الضيافة عامة والضيافة العربية خاصة ، ولا احسب لذلك من سبب الا كوننا سوريين في حين انها كرمت مستشار المعارف الانكليزي الذي فرض عليها فرضاً !

وبعد مضي مدة الضيافة المشكورة عند مدير المعارف الاستاذ شملان غادرناه شاكرين الى دارنا الجميلة الجديدة على البحر وأقمت فيها مع صديقي الاستاذ كامل بنقسلي ، وهكذا استقر بنا المقام في الكويت .